الفصل الرابع

الشعراء العشاق في صدر الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

الشعراء العشاق في صدر الإسلام

مالك بن الصمصامة الجعدي وجَنوب

وورث الشعراء العشاق في صدر الإسلام تقاليد الغزل العفيف في العصر الجاهلي، وساروا على نهج من سبقهم وذكروا عشاق الجاهلية واقتدوا بهم وتأسوا بما أصابهم .

ومن هؤلاء الشعراء العشاق الذين تعلقوا بامرأة واحدة وأخلصوا لها الحب وقاسوا في حبهم وحرموا من امتلاك من يحبون ؛ مالك بن الصمصامة الجعدي من بني عامر بن صعصعة، الذي كان يهوي فتاة من قومه هي جنوب بنت محصن الجعدية، وكان مالك فارساً شجاعاً جواداً جميل الوجه، وقد توثق الحب بين مالك وجنوب، إلا أن أخاها الأصبغ بن محصن قمع هذا الحب وحكم على المحبين بعذاب الفراق والحرمان، كان الأصبغ فارساً من فرسان العرب وشجعانهم، وأهل النجدة والبأس منهم، فنُمي إليه شيء من خبر مالك وجنوب، فآلى يميناً غليظة : لئن بلغه أنه عَرَضَ لها أو زارها ليقتلنَّه، ولئن بلغه أنه ذكرها في شعر أو عَرَّضَ بها ليأسرَنَّه، ولا يطلقه إلا أن يجُزَّ ناصيته في نادي قومه، فبلغ ذلك مالك بن الصمصامة، فضاقت به الدنيا، وزاد سعار الحب في قلبه وملأ كيانه، وصار يصور حاله وما يقاسيه وما سيصيبه، وقد كبر عليه أن يحرم من حب طاهر عفيف، وجاء بصورة صادقة رائعة يعرضها أمام الأخ الظالم وقومه، إنه يرضى بما ينزل به من عقاب مادام قريباً ممن يحب ، ويعجب ممن يرى أن من العيب أن يحن حبيب إلى حبيبه، وهل من الحق أن يحرم إلف من الحنين إلى إلفه، وهل حرمت نجيبة

من الإبل من الحنين إلى إلفها ؟ يقول مخاطباً أخاها: (١)

إذا شئتَ فاقرِنّي إلى جنبِ عيهبٍ أجَبَّ ونضْوي للقلوصِ جنيبُ
فما الحلقُ بعدَ الأسْرِ شرٌّ بقيَّةٌ من الصدِّ والهجرانِ وهي قريبُ
ألا أيها الساقي الذي بَلَّ دلْوَهُ بقُريانَ يسقي هل عليكَ رقيبُ
إذا أنتَ لم تشْرَبْ بقريانَ شربةً وحانيةِ الجدرانِ ظَلْتَ تلوبُ
أُحِبُّ هبوطَ الواديين وإنَّني لمشتَهِرٌ بالواديين غريبُ
أحَقاً عبادَ اللهِ أنْ لستُ خارجاً ولا والجاً إلا عليَّ رقيبُ
ولا زائراً وحدي ولا في جماعةٍ من الناسِ إلا قيْلَ : أنتَ مُريبُ
وهل ريبةٌ في أن تَحِنَّ نجيبةٌ إلى إلفها أو أنْ يحِنَّ نجيبُ

واشتد العشق بمالك وأصابه الضنى والهيام فهو لا يكاد يرى حبيبته حتى يبهر ويغمى عليه لأنه محروم من النظر إليها، محروم من محادثتها، عليه رقيب من قومه، وسلطان أخيها قد سَدَّ عليه منافذ الأمل، يروي أبو الفرج بعضاً من صور محنته وما أصابه حين رآها، قال : " حدثنا فتيان من بني جعدة أنها أقبلت ذات يوم وهو جالس في مجلس فيه أخوها، فلما رآها عرفها، ولم يقدر على الكلام بسبب أخيها، فأغْمي عليه، وفَطِن أخوها لما به، فتغافل عنه، وأسنده بعضُ فتيان العشيرة إلى صدره، فما تحرك، ولا أحار جواباً ساعةً من نهاره، وانصرف أخوها كالخجل، فلما أفاق قال :(٢)

ألَمَّتْ فما حَيَّتْ وعاجتْ فأسرعَتْ إلى جرعةٍ بينَ المخارمِ فالنَّحْرِ
خليليَّ قد حانتْ وفاتيَ فاحْفِرا برابيةٍ بينَ المخافرِ والبُتْرِ

---

(١)الأغاني ٢٢/ ٨٢ ، تزيين الأسواق ١/ ١٥٠ . العيهب: الكساء من الصوف ونحوه. أجبُّ: مقطوع السنام للإبل . نضو: بالٍ خلق. القَلوص: الناقة الفتية. قريان: موضع في ديار بني جعدة من بني عامر. حانية الجدران : أي الكعبة، يقسم بها.

(٢)الأغاني ٢٢/ ٨٢ ـ ٨٣ . عاجت: انصرفت. الجرعة: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل. المخارم والرمل: موضعان في ديار بني جعدة. المخافر والبتر : موضعان. الجدث: القبر .

لكيما تقول العبدليَّةُ كلَّما رأتْ جَدَثي:سُقِّيْتَ يا قبرُ من قَبْرِ "

ويتهيأ قوم جنوب للرحيل طالبين النجعة في مواضع ممرعة، ناحية حِسْيٍ والحمى (١) وتضيق بمالك الدنيا لرحيل حبيبته، فيقف في طريق القوم المرتحلين، حتى إذا بلغته جنوب أخذ بخطام جَملها، يلقي عليها نظرة الوداع، ويتوثق منها هل تقيم على العهد وترعى ما بينهما من حب، وأنشأ يقول : (٢)

أرَيْتُك إنْ أزمعتُمُ اليومَ نيَّةً وغالَك مُصْطافُ الحمى ومرابعُهْ

أتَرْعَيْنَ ما استُودِعْتِ أم أنتِ كالذي إذا ما نأى هانتْ عليه ودائعُهْ

فبكت جنوب وقالت : بل أرعى والله ما استودِعْتُ، ولا أكونُ كمَنْ هانتْ عليه ودائعه، فأرسلَ بعيرها، وبكى، حتى سقط مغشيّاً عليه، وهي واقفة، ثم أفاق، وقام ، فانصرف وهو يقول : (٣)

ألا إنَّ حِسْياً دونَهُ قُلَّةُ الحمى مُنى النفسِ لو كانتْ تُنالُ شرائعُهْ

وكيفَ ومن دون الورود عوائقٌ وأصبغُ حامي ما أحبُّ ومانعُهْ

فلا أنا فيما صدَّني عنهُ طامعٌ ولا أرتجي وصْلَ الذي هو قاطعُهْ

ويبقى مالك بعد رحيل حبيبته يعاني الشوق والضني، ولا يطيق ما ابتُليَ به من هَمٍّ وعذاب فيغلبه المرض ويودي به، ويصل نعي مالك إلى جنوب وكان في يدها إناء لبن ترتشف منه فما إن سمعت الخبر حتى غصَّت واضطربت، فإذا هي قد لفظت أنفاسها وسقطت ميتة . (٤)

---

(١)موضعان فيهما نخل وزرع .

(٢)الأغاني ٨٣/٢٢ .

(٣)أصبغ: هوأخو جنوب، وقد تقدم ذكره .

(٤) تزيين الأسواق١/١٥٢ .

obeikandl.com

عبد الله بن علقمة وحُبَيْشة

وقصة حب عبد الله بن علقمة قصة حب صادق عنيف عفيف، وعبد الله بن علقمة أحد بني عامر بن عبد مناة بن كِنانة، أحبَّ فتاة من قومه يقال لها حُبَيْشة بنت حُبَيْش، وكان بدء القصة أن عبد الله كان غلاماً لم يحتلم بعد وخرج مع أمه لتزور جارةٍ لها، وكان للجارة بنت جميلة، فلما رآها عبد الله أعجبته ووقعت في نفسه، وقيل إنه رآها تحلب الناقة فذهله جمالها، ثم لما قدمت له اللبن ليشرب اضطرب وسقط اللبن من يده فعلمت ما يخالجه، ووقع في نفسها وأحست بما يحسه (١)،وانصرف وترك أمه عند جارتها، فلبثت عندها يومين، ثم أتاها ليَرْجِعَها إلى منزلها، فوجد حُبَيْشة قد زُيِّنَتْ لأمر كان في الحي، فازداد بها عَجَباً، وانصرف بأُمِّه في غداة تُمطر، وصورة حبيشة لا تفارق ذهنه، فصار ينشد وهو في الطريق : (٢)

وما أدري بَلى إني لأدري أصوبُ القَطْرِ أحسنُ أم حُبَيْشُ
حُبَيْشَةُ والذي خلقَ الهدايا وما عن بُعْدها للصَّبِّ عيشُ

فسمعت ذلك أمُّه فتغافلت عنه وكرهت قوله، ثم مشيا ملياً، فإذا هو بظبي على ربوة من الأرض، فذكره بحبيشة فسأل أمه عن أيهما أجمل :

يا أُمَّتا أخبريني غيرَ كاذبةٍ وما يُريدُ مَسُولُ الحقِّ بالكَذِبِ
أتلكَ أحسنُ أم ظبيٌ برابيةٍ لا بل حُبَيْشةُ في عيني وفي أَرَبي

فزجرته أُمُّه وقالت له : ما أنتَ وهذا! نزوجك بنت عمك فهي أجمل من

---

(١)مصارع العشاق ١/٣١٤ .

(٢)الأغاني ٧/ ٣٠٠ .

تلك، وأتت امرأة عمِّه فأخبرتها خبره، وقالت : زيِّني ابنتك له، ففعلت وأدخلتْها عليه، فلما رآها أطرق، فقالت له أمه : أيهما الآن أحسن؟ فقال ينفس عما في قلبه من حب حبيشة التي ملأت قلبه وشغلت كيانه :

إذا غُيِّبَتْ عني حُبَيْشةُ مرَّةً من الدهرِ لم أملك عزاءً ولا صَبْرا
كأنَّ الحشى حَرُّ السعيرِ يحُشُّهُ وقودُ الغضى والقلبُ مستعرا

وتمكن حب حُبيشة من قلبه، وصار يقول فيها الشعر ويراسلها، وهي تستجيب له وتراسله، وتبادلا حباً بحب ووجداً بوجد، وكثر قوله الشعر فيها، فمن قوله يحدثها ويذكر لها أماني نفسه في الزواج منها: (١)

حُبَيْشةُ هل جَدِّي وجَدُّكِ جامعٌ بشَمْلِكُمُ شَمْلي وأهلكُمُ أهلي
وهل أنا ملتفٌّ بثوبكِ مرَّةً بصحراء بينَ الأليتينِ إلى النخلِ
وهل أشتفي من ريقِ ثغركِ مرَّةً كراحٍ ومسْكٍ خالطا ضَرَبَ النَّحْلِ

ولما كثر شعره وشاع وعرف أهل حُبيشة بهذا الحب، حجبوها عنه، فزاد تعلقه بها وغرامه فيها وهو يخفف عما في جواه من حرقة الشوق بقول الشعر ينفس به عن همومه، فأراد أهل حبيشة أن تواعده موضعاً وتشتمه وتظهر له البغض ليكف عنها، وكمن أهلها في موضع قريب يستمعون ما تقول، ولقنوها أن تقول : " نشدتكَ اللهَ إنْ كنتَ تحبني فوالله ما على الأرض شيء أبغض إليَّ منك " ، وجلست حُبيشة عند السَّرْحة ، وأقبل عبد الله لوعدها، فلما دنا منها دمعت عيناها والتفتتْ إلى حيث أهلها جلوس، فعرف أنهم قريب فرجع ، وبلغه ما قالوا لها أن تقوله، فازداد تعلقاً بها، وصار يصف حاله وحالها ويتذكر دموعها :

---

(١)الأغاني ص ٣٠٠ .الأليتان والنخل: موضعان. الضرَب: العسل الأبيض الغليظ .

لوقلت ما قالوا لَزِدْتُ جَوىً بكم على أنه لم يبقَ سترٌ ولا صبرُ
ولم يكُ حُبِّي عن نوالٍ بذَلْتَه فيُسْليني عنه التجهُّمُ والهجرُ
وما أنسَ م الأشياء لاأنسَ دمعَها ونَظْرَتَها حتى يُغَيِّبَني القَبْرُ

وكانت نهاية هذا الحب الصادق العفيف، نهاية مروعة إذ قُتل عبد الله بين يدي حبيبته، وكان ذلك حين بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني عامر يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم منهم من أسلم وقاتل منهم من قاتل ووقع عبد الله بن علقمة أسيراً، فلما أخذوه ليُقتل قال لهم: هل لكم في خير؟ تدركون بي الظَّعنَ أسفل الوادي ثم تقتلوني، فلما كان في ذلك الموضع نادى بأعلى صوته : اسلمي حُبَيْش، عند نفاد العيش، فأقبلت إليه جارية بيضاء حسناء ، فقالت : وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، ثم أنشد: (١)

إنْ يقتلوني ياحُبَيْش فلم يدعْ هواكِ لهم مني سوى غُلَّة الصدرِ
وأنتِ التي أخليتِ لحميَ من دمي وعظمي وأسبلتِ الدموعَ على نحر

فأجابته تقول :

ونحنُ بكينا من فراقكَ مرَّةً وأخرى وآسيناكَ في العُسْرِ واليسرِ
وأنتَ فلا تَبْعَدْ فنعمَ فتى الهوى جميلُ العفافِ في المودَّةِ والسترِ

وتبادلا الشوق وتحاورا بالشعر، حتى ضُرب عُنُقه، فتقَحَّمت حبيشة من خدرها حتى أتت نحوه فالتقمت فاه ، وهي تضرب نفسها وتضطرب ، فلما نزعوا منها رأسه وجدوها قد لحقت به وفارقت دنيا العذاب .

وحين علم رسول الله ﷺ ما صُنع بالآسرى حزن وأرسل علي بن أبي

---

(١) الأغاني ص ٣٠٣ .

طالب ليدفع لهم دياتهم . وهكذا طويت صفحة حب صادق عفيف عانى فيه العاشقان في سبيل هذا الحب العذاب والضنى والحرمان .

obeikandl.com

عروة بن حزام وعفراء

أول شاعر عاشق من بني عذرة، كانت قصة حبه مثالاً للحب الطاهر العفيف الذي لقي في سبيله الشقاء والعذاب والضني والهيام، حتى أودى به الحب فمات محروماً من حبيبته، وقصته شبيهة بقصة حب المرقش الأكبر، وتكاد قصص المحبين المتيمين تتكرر وتتشابه، وقد صار عروة مثالاً وقدوة للشعراء العذريين الذين عانوا مثل ما عانى فذكروه وتأسوا به، ذكره قيس بن الملوح مجنون ليلى في قوله : (١)

عجبتُ لعروةَ العُذريِّ أمسى أحاديثاً لقومٍ بعدَ قومِ
وعُروةُ مات موتاً مستريحاً وها أناذا أموتُ بكلِّ يومِ

ويأتسي به وبابن عجلان قيس بن ذريح صاحب لبنى في قوله : (٢)

وفي عروة العذريِّ إنْ متُّ أسوةً وعمرو بن عجلانَ الذي قتلتْ هندُ
وبي مثل ما ماتا به غيرَ أنَّني إلى أجلٍ لم يأتني وقعُهُ بعدُ

ويذكره جميل بن معمر مقارناً ما يجد من عذاب الحب بما وجد عروة :(٣)

ولا وجدَ العذريُّ عروةُ إذ قضى كوجدي ولامن كان قبلي ولابعدي
على أنَّ من قد مات صادفَ راحةً وما لفؤادي من رواحٍ ولا رشدِ

وذكره جرير أيضاً وهو يتكلف العشق والهوى : (٤)

هل أنتِ شافيةٌ قلباً يهيمُ بكم لم يلقَ عروةُ من عفراءَ ما وجدا

---

(١) الأغاني ٨٤/٢ ومصارع العشاق ٧٥/٢ .
(٢)ديوانه ص ١٤٠ .
(٣)ديوانه ص ٧٦ .
(٤)ديوان جرير ص ١٢٥ ط صادر، وتزيين الأسواق ١٦٧/٢ .

ما في فؤاديَ من داءٍ يُخامرُهُ إلا التي لو رآها راهبٌ سَجَدا

وعروة هو عروة بن حزام بن مهاصر، أحد بني حِزام بن ضبَّة بن عبد كبير بن عذرة، كانت ولادته في الجاهلية وعاش في الإسلام وتوفي زمن عثمان سنة ٣٠ هـ، فهو من الشعراء المخضرمين، وليس له شعر إلا ما قاله في عفراء وما وصف به حاله وما وجده من عناء الحب والحرمان، نشأ عروة يتيماً، فقد توفي أبوه وهو في الرابعة من عمره(١)، فكفله عمه عقال بن مُهاصر، وعاش عروة وعفراء في بيت واحد يلعبان ويمرحان ولا يفترقان، وقد ألفَ كلٌّ منهما الآخر وأحبه، وكان عمه عقال يقول لعروة لما يرى من إلفهما : أبشر فإنَّ عفراء امرأتك إن شاء الله، فكانا كذلك حتى أدركا ولحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال (٢)، ويلجأ عروة إلى عمته هند بنت مهاصر فيشكو لها ما يلاقي من حب عفراء ويريد الزواج بها، وتعده خيراً وتتوسط له لدى أخيها، وتسأل هند أخاها أن يزوج عروة بعفراء، فيعدها خيراً، ويريد من عروة أن يتمهل حتى يكون له مال، فيطمئن عروة بعض الاطمئنان. ولكن أم عفراء كانت سيئة الرأي فيه، تريد لأبنتها ذا مال ووفر، وقد أبت أن تزوج ابنتها إلا من رجل موسر كثير الثراء.

فعزم عروة أن يقصد ابن عم له موسراً كان مقيماً باليمن، وجاء عروة إلى عمه وامرأته فأخبرهما بعزمه، فصوباه ووعداه ألا يحدثا حدثاً حتى يعود. وقصد عروة ابن عمه، وعرَّفه حاله وما قدم له، فوصله وكساه، وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها على أهله. (٣)

---

(١) تزيين الأسواق ١٦٨/٢.

(٢) الأغاني ١٢٤/٢٤.

(٣) الأغاني ١٢٥/٢٤.

وفي غياب عروة نزل رجل من أهل الشام من بني أمية في حي عفراء، فنحر ووهب وأطعم، وكان ذا مال عظيم، فرأى عفراء وكان منزله قريباً من منزلهم، فأعجبته وخطبها إلى أبيها، فاعتذر بأنها مسماة إلى ابن عمها، فرغبه بالمال، ولجأ إلى أمها، فوافق عندها قبولاً، وألحت على زوجها وخاصمته حتى رضي ، وزوجوها، فأقام زوجها فيهم ثلاثاً ثم ارتحل بعفراء إلى الشام، وقيل إن عفراء قالت قبل أن يدخل بها: (١)

يا عُروَ إنَّ الحيَّ قد نقضوا عهدَ الإله وحاولوا الغدرا

وخاف أبوها عودة عروة وعلمه بغدر عمه، فعمد إلى قبر عتيق فجدَّده وسواه زاعماً أنه قبر عفراء ، وسأل الحي أن يكتموا أمر زواجها .

وعاد عروة بعد أيام ممنياً نفسه بالزواج من عفراء والظفر بحبيبته، غاية ما يتمناه، ولكنه فُجع حين أعلمه عمه بأن عفراء قد توفيت، وذهب به إلى ذلك القبر، فمكث يختلف إليه أياماً وهو مضنًى هالك، وتتكرر قصة المرقش، فقد علم من إحدى الجواري بخبر زواج عفراء ورحيلها، فضاقت به الدنيا وعزم أن يرحل إليها، فرحل إلى الشام وسأل عن الرجل فأُخبر به ودُلَّ عليه، فقصده ونزل عليه ضيفاً وانتسب له إلى عدنان ، فأكرمه زوج عفراء وأحسن ضيافته، ومكث أياماً حتى أنسُوا به ، ثم سأل جارية لهم أن توصل خاتمه إلى عفراء، فامتنعت الجارية ورأته عملاً قبيحاً، فلما ألحَّ عليها وأعلمها أنه ابن عمها، رضيت الجارية، وأوصاها أن تضع الخاتم في إناء اللبن الذي تصطبح به، فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فعرفته فبهتت ، وعرفت أنه ضيفهم، فأخبرت عفراء زوجها، وقالت: إنه كتم نفسه حياء منك

---

(١) الأغاني ١٢٦/٢٤ .

وتذهب الرواية إلى أن الزوج كان شهماً كريماً وقد عرف قصتهما، فقربه وأكرمه وجعله يجلس إلى عفراء ويحدثها، ويخرج الزوج وقد أوصى خادماً له بالاستماع عليهما، وإعادة ما تسمعه عليه، فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وكلاهما يبكي أحر بكاء، وقد علم زوج عفراء بما جرى بين عروة وعفراء، وما هما فيه من حب وطهر وعفة، فأراده أن يمكث عندهم فأبي ونوى الرحيل وهو في حال من الضني والنحول والهزال، فزودوه وأكرموه وشيعوه، فلما رحل عنهم نُكس بعد صلاحه وتماثله، وأصابه غشيٌ وخفقان وكان يغمى عليه ثم يفيق، ولقيه في الطريق ابن مكحول عراف اليمامة، فسأله عما به، وهل هو خَبَل أم جنون ؟ فأنشأ عروة يقول :(١)

وما بي من خَبْلٍ ولا بيَ جِنَّةٌ ولكنَّ عمي يا أُخَيَّ كذوبُ
أقولُ لعرَّاف اليمامة داوني فإنَّكَ إنْ داويتني لطبيبُ
فواكبداً أمستْ رُفاتاً كأنَّما يُلَذِّعُها بالموقدات طبيبُ
عشيَّةَ لا عفراءُ منكَ بعيدةٌ فتسلو ولا عفراءُ منك قريبُ
فوالله لا أنساكِ ما هبَّتْ الصَّبا وما أعقَبَتْها في الرياحِ جَنوبُ

وبقي في هذه الحال يعاني لذعة الشوق وحرَّ الجوى، ويهتز مرتعداً كلما طاف خيالها في ذهنه، فيناجيها :(٢)

وإني لتعروني لذكراكِ رِعْدَةٌ لها بين جلدي والعظامِ دبيبُ

---

(١)ديوان عروة ص ٢٢ ـ ٢٥ ط انطون القوال، دار الجيل بيروت ١٩٩٥، الأغاني٢٤/١٢٩ .

(٢)الديوان ص ٢٢ ـ ٢٣ والأغاني ٢٤/١٣٢ والشعر والشعراء ٣٩٥ .

فما هـو إلا أنْ أراهـا فُجاءةً فأُبْهَتُ حتى ما أكادُ أُجيبُ
وأُصْرَفُ عن رأيي الذي كنتُ أرْتَئي وأنسى الذي حُدِّثْتُ ثم تغيبُ
ويُظْهِرُ قلبي عُذْرَهـا ويُعينُهـا عليَّ فما لي في الفؤادِ نصيبُ

وحار به أهله وهم يعرضونه على العرافين والأطباء ، وعالجوه بالتعاويذ والرقى، وقد يئس العرافون فما لهم يد في داء الهوى الدفين، وعلم عروة أنه هالك لا محالة :(١)

جعلت لعراف اليمامة حُكْمَهُ وعَرَّافِ نجدٍ إنْ هُما شفياني
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سَلْوةٍ إلا بها سقياني
فقالا شفاكَ اللهُ والله مالنا بما حملت منكَ الضلوعُ يدانِ
فقالا نعم نشفي من الداء كلِّه وقاما مع العُوَّادِ يبتَدِرانِ

واشتد به السقم والهزال، ويصور حاله وما صار إليه وقد لبس حلة جديدة :(٢)

أغرُّكما لا بارك اللهُ فيكما قميصٌ وبُردا يَمْنَةٍ زَهَوانِ
متى تكشفا عني القميص تَبَيَّنا بيَ الضُرَّ من عفراءَ يا فتيانِ
وتعتَرِفا لَحْماً قليلاً واعظُماً دقاقاً وقَلْباً دائمَ الخفقانِ

وهذا الذي فيه هو هوى عفراء الذي تمكن من قلبه وجعله دائم الوجد والبكاء، وإذا حدث نفسه بنسيانها وهجرها أبى قلبه وصار يشفع لها، فما له إلا أن يلجأ إلى الله ليعينه على تحمل ما ابتلي به : (٣)

على كَبِدي من حُبِّ عفراءَ قَرْحَةٌ وعيناي من وَجْدٍ بها تَكِفانِ

---

(١)الديوان ص ٣٩ ـ ٤٠ ،الشعر والشعراء ص ٣٩٥ .
(٢)الديوان ص ٣٥ ـ ٣٦، تزيين الأسواق ١:١٣٤ .
(٣)الديوان ص ٣٦ .

فعفراءُ أرجى الناسِ عندي مودَّةً وعفراءُ عني المُعْرِضُ المتواني
أُحِبُّ ابنةَ العُذريِّ حُبّاً وإنْ نأتْ ودانَيْتُ فيها غيرَ ما متدانِ
إذا رامَ قلبي هجرها حال دونَهُ شفيعانِ من قلبي لها جَدلانِ

وتملأ عفراء عليه نفسه وشعوره، فلا يفكر إلا فيها ولايرى أحداً سواها، ويصور ما يعتريه من ذهول ودهشة وارتباك حين يراها فينسى ما أعد من كلام يحدثها به :(١)

وإني لتعروني لذكراك رِعْدَةٌ لها بين جسمي والعظامِ دبيبُ
وما هو إلا أنْ أراها فُجاءةً فأُبْهَتُ حتى ما أكادُ أُجيبُ
وأُصْرَفُ عن رأيي الذي كنتُ أرْتَئي وأنسى الذي حُدِّثْتُ ثم تغيبُ
ويُظْهِرُ قلبي عُذْرَها ويُعينُها عليَّ فما لي في الفؤاد نصيبُ
وقد علمتْ نفسي مكانَ شفائها قريباً وهل ما لا يُنالُ قريبُ
حَلَفْتُ بربِّ الساجدينَ لربِّهم خشوعاً وفوقَ الساجدينَ رقيبُ
لئنْ كانَ بَرْدُ الماءِ حرَّانَ صادياً إليَّ حبيباً إنَّها لحبيبُ

ويتمنى عروة أن يعم الحب على الجميع ولا يُحرم حبيب من حبيبه ، وحتى الحيوان يريد له أن يتمتع بهذه النعمة ولا يحرم منها : (٢)

فيا ليتَ كلَّ اثنينِ بينهما هوىً من الناسِ والأنعامِ يلتقيانِ
فيقضي مُحِبٌّ من حبيبٍ لُبانةً ويرعاهُما ربي فلا يُرَيانِ

وأكثر ما يغضب هؤلاء العشاق تدخل الوشاة والرقباء والعاذلين، فهم فئة شر قاسية تقف بين المحبين ويغيظها أن ينعم المحبون، فيأبون إلا فراقهم وإثارة الإحن والمحن، ويتذمر عروة من هؤلاء الوشاة الذين يتدخلون فيما لا

---

(١)الديوان ص ٢٢ ـ ٢٣ ، الأغاني ٢٤/ ١٣٢ .
(٢)الديوان ص ٣٧ .

يعنيهم، ويصب عليهم اللعنات جزاء ما يقترفونه من تعكير صفو المحبين : (١)

تكنَّفني الواشونَ من كلِّ جانبٍ ولو كانَ واشٍ واحدٌ لكفاني
إذا ما جلسنا مجلساً نَسْتَلذُّهُ تواشَوا بنا حتى أمَلَّ مكاني
ألا لعن اللهُ الوشاةَ وقولَهم فلانةُ أضحتْ خُلَّةً لفلانِ
ولو كان واشٍ باليمامةِ دارُهُ وداري بأعلى حضرموتَ أتاني

وكل ما يتمناه عروة أن يلتقي بحبيبته بعيداً خالياً عن أعين الرقباء، يبثها الشوق والوجد وتبثه، وما دام الأهل والوشاة يحولون بينهما، ومادام عمه القاسي اللئيم قد حال بينهما، فهو يلجأ إلى الأمنيات البعيدة الغريبة أمنيات اليائس المحروم ـ كما تمنى غيرة من العذريين ـ بأن يكون وعفراء جملين أجربين يطردهما الناس فيكونا بعيدين في الفلاة لايسأل عنهما أحد، فيسعدان باللقاء الدائم والصحبة العزيزة : (٢)

يكلفني عمِّي ثمانينَ بَكرةً وما لي يا عفراءُ غيرُ ثمانِ
فيا ليتَ عمِّي يومَ فرَّق بيننا سُقي السُّمَّ ممزوجاً بشَبٍّ يمانِ
بُنَيَّةُ عمِّي حيلَ بيني وبينها وضَجَّ لوشك الفُرقَة الصُّردانِ
فياليتَ محيانا جميعاً وليتَنا إذا نحنُ مُتْنا ضَمَّنا كَفَنانِ
ويا ليتَ أنَّا الدهرَ في غير ريبةٍ بعيرانِ نرعى القَفْرَ مؤتلفانِ
يُطَرِّدُنا الرُّعيانُ عن كلِّ منهَلٍ يقولونَ بَكْرا عُرَّةٍ جَربانِ

---

(١)الديوان ص ٤٢ ـ٤٣ ، والزهرة ١/ ١٢٠ .

(٢)الديوان ص ٤٤ ـ ٤٥ .الصردان: مثنى صُرَد، طائر أخطب ضخم المنقار يكون في الشجر . العُرَّة: الجَرَب. القَرَن : الحبل .

إذا نحنُ خِفْنا أنْ يُفَرِّقَ بيننا ردى الدهرِ دانى بيننا قَرَنانِ

وبقي عروة يعاني من الوجد والضنى، وقد أصابه السقم والهزال ، وكانت نهايته في الطريق حين عاد من زيارة عفراء على ما تقدم، وقيل كان في بيت مفرد عن الحي ومعه أمه وهو يردد : (١)

من كان من أمهاتي باكياً أبداً فاليومَ إني أراني اليومَ مقبوضا

يُسْمَعْنَنيه فإني غيرُ سامِعُهُ إذا علوتُ رِقابَ القومِ معروضا

ثم لفظ أنفاسه .

ولما بلغ عفراء خبر موته استأذنت زوجها في أن تندبه وتقيم مأتماً عليه، فأذِنَ لها، وكانت عند قبره تبكي وتتمرغ بترابه وهي تنشد :(٢)

ألا أيها الركبُ المُخبُّونَ ويحكم بحَقٍّ نعيتم عروةَ بن حزامِ

فإنْ كان حقاً ما تقولون فاعلموا بأنْ قد نعيتم بدرَ كلِّ ظلامِ

فلا تهنا الفتيانُ بعدَكَ لـذَّةً ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ

ولم تزل تردد هذه الأبيات حتى قضت نحبها فدفنت بجواره.

وهكذا يسدل الستار عن قصة حب طاهر رائع ظلت تتردد في ذاكرة الزمن وتستعيد ذكرها الأجيال .

---

(١)الأغاني ٢٤/ ١٣٥ .

(٢)٢٤/ ١٣١، تزيين الأسواق ١/ ١٣٢، مروج الذهب ٢/ ٥٣٤ .